قصيدة المديح النبوي:

نحو شعرية جديدة

بقلم: عبدالفتاح شهيد
المغرب*

يرى الدكتور محمد الدناي[1] أن الساحة الشعرية عاشت صراعاً فنياً عميقاً بين الأعراف الجاهلية الموروثة والقيم الإسلامية الجديدة، مما هيأ الذوق الأدبي والشاعرية لاكتشاف نموذج شعري جديد برز فيه شرف الدين البوصيري، من شعراء القرن الرابع، وقد كانت «بردته» أول قصيدة كشف فيها عن نموذج فني مكتمل للمدحة النبوية، حتى «إن تاريخ قصيدة المديح النبوي - على حد قول الباحث - يبدأ مع هذه القصيدة، فكل المدائح اللاحقة أصبحت تمثلاً فنياً دقيقاً لها»، حيث أصبحت - فيما بعد - العفة الشعرية المتمثلة في الحشمة عنصراً فنياً جوهرياً، ومقياساً نقدياً، للمفاضلة الفنية بين المدائح النبوية[2].

بينما يرى الدكتور عبدالله بنصر العلوي[3] أن قصيدة المديح النبوي هي استكمال للمسار الفني للقصيدة المادحة، وهذه الأخيرة لم تستمر إلا عند تشبثها بالمديح النبوي، لما «أصبح النسيب رمزاً، والممدوح سامياً والغرض التماساً[4]»، أما عن البوصيري فليس مقعّداً لقصيدة المديح النبوي، ولا مؤصلاً لنهجها. ويذهب الباحث إلى أن روح الإقبال النفسي وعمق الرغبة الصوفية حدت بكثير من الباحثين إلى إكبار شأنه في تمثيل منحى شعره النبوي، وحتى نحا بعض أصدقائنا الدارسين إلى القول بأن بردة البوصيري هي النمط الفني الجديد للقصيدة المادحة»[5]، وطبعاً يقصد زميله الدكتور محمد الدناي.

إن آراء الباحثين هي استكمال لما خطه أستاذهما الدكتور عبدالله الطيب في مؤلفاته ومقالاته الرائدة، وقد انصرفت جهودهما إلى الكشف عن شعرية قصيدة المديح النبوي، من خلال سياقاتها الأخلاقية وأصولها الفنية. وهذا العرض محاولة للكشف عن شعرية هذه القصيدة من جانب آخر، نراه أكثر أهمية، ويتعلق الأمر ببنياتها الداخلية أولاً، ومحيطها اللصيق بها ثانياً، وسنقتصر في هذا المقام على مقاربة لتقنيات السرد في مدائح الرسول ﷺ، وهي خطوة أولى على طريق الباحث فيما اصطلحنا عليه بشعرية جديدة تزخر بها المدحة النبوية في كافة أطوارها وأنماطها الفنية.

❖ النبويات وفتنة السرد:

الخطاب السردي هو «لعبة تركيبية، تمثل الحادثة تخييلياً[6]، ويشكل الراوي، والمروي، والمروي له أسس كل عملية سردية.والسرد «يوجد في كل الأجناس الأدبية، وبدون شك في كل أشكال التعبير[7]، ولذلك أولى الباحثون أهمية خاصة لارتباط القصيدة العربية بالأساطير والملاحم القديمة[8].

* باحث، كلية الآداب، فاس.

والمتصفح لدواوين الشعر النبوي ينتبه إلى حمولته السردية الكبيرة، ودورها في خلق «شعريته» على مستويين:

- **المستوى الأول:** المقدمات «النثرية» الموضوعة بين أيدي معظم القصائد والدواوين.
- **المستوى الثاني:** ويرتبط أساساً بمقطع السيرة النبوية في القصيدة المادحة.

د . عبدالله الطيب

المقدمات وتوجيه القراءة:

إن «التقديم» لقصيدة أو ديوان هو عقد يحاول الشاعر، أو راوي شعره، أن يضعه بين أيدي المتلقي أو المروي له لتجنب أي تأويل قد يكون بعيداً عن «مقصدية» الشاعر، أو على الأقل بسط مفهومه للشعر ورؤيته لعملية الكتابة الشعرية.

والمقدمة سواء كانت من وضع الشاعر أم الراوي، لا يمكن أن تنفصل عن الإبداع الشعري، فهي مكون مهم من مكونات شعرية القصيدة أو الديوان، بما تلعبه من دور في توجيه القراءة ورسم حدود التأويل. ويتضح الأمر جلياً في قصائد ودواوين المديح النبوي، لارتباطها بالمقدس الديني ومراهنتها عليه، بعد أن فقد الممدوح الدنيوي جاذبيته وبريقه، فما أكثر ما يقرع الشاعر أو الراوي، آذاننا بأن هذه القصيدة كان لها دور في شفاء صاحبها من مرض عضال، أو رجع إلى الشاعر بها بصره، وأرسل الله بها الخير العميم بعد أن أقلعت السماء وغيض الماء!! ولسنا الآن في معرض تصديق أو تكذيب هذه الروايات، فذلك بعيد عن مجال اهتمام هذا العرض.

ولعل ما رافق بردة البوصيري من روايات هو النموذج الذي اتكأ عليه مداح النبي ﷺ فيما بعد، ولذلك آثرنا أن نخص مقدمتها النثرية بعناية خاصة، قال فيها: «وقال يمدح النبي ﷺ ، وهي من أشهر شعره، وهذه القصيدة تعرف بالبردة أو البرأة، وقد وفد بها على النبي ﷺ ، وهو مريض، فعوفي من وقته وساعته»[٩].

وتناولنا لهذا التقديم سيسير في اتجاهين متقاطعين، الأول يتعلق بتوجيه القراءة، ويرتبط به ما أكد عليه بعض الباحثين مؤخراً، من أن الشعر يحتاج للسرد «حتى يؤكد حضوره وسلطته[١٠]»، أما الثاني فيتعلق ببنية المحكي والأسرار الكامنة فيه ليتأهل لتوجيه الإبداع بعده.

فالشاعر أو الراوي في مقدمة بردة البوصيري يقصف ذهن القارئ وشعوره الديني والفني بمجموعة من الموجهات، يصعب أن يصمد أمامها بقراءة نزيهة تبحث عن الشعري داخل النص لا خارجه.

- «يمدح النبي ﷺ»، فلابد من استحضار مكانة الممدوح، وذلك لإضفاء نوع من القدسية على طقوس القراءة.
- «وهي من أشهر شعره»، فالقصيدة مشهورة، ووقع عليها إقبال كبير من القراء، و«الشهرة» معطى يهدف به الراوي إلى خلق نوع من الإقبال على القصيدة، وهو تدخل سافر في نزاهة القراءة وحكم المتلقي.
- و«هذه القصيدة تعرف بالبردة»، فربط النص بقصيدة كعب بن زهير، وما أحاط بها من أحداث، محاولة لخلق شعرية تغرف من منبعين:
  - **المنبع الأول:** الشعرية العربية الأصيلة التي تعود إلى مرحلة القوة والفحولة.
  - **المنبع الثاني:** المقدس الديني، حيث إن كعباً أنشد قصيدته بين يدي الرسول ﷺ.
- أو «البرأة» وهو تذكير بما أحاط بالقصيدة من كرامات.
- و«قد وفد بها على النبي ﷺ»، تقديم الحدث عاريا عمّا يدل على أن ذلك وقع في المنام، محاولة لإضفاء واقعية لا مجال معها للشك.

أما ما يتعلق بالجانب السردي في هذه المقدمة، فيكفي أن نقول إن كاتبها تفنن في ترتيب الأفعال الحكائية، حيث بدأ بالحل قبل العقدة، حين قال: إنها تعرف بـ«البرأة» وهو ما يسمى بالأسلوب التراجعي أو الاسترجاعي في القصة، لينطلق في عملية الحكي بمتواليتين أساسيتين:

- الوفود على الرسول ﷺ في حالة مرض .

- المعافاة في الوقت والساعة.

والراوي يستحضر المؤلف «خيالياً» أو «واقعياً» وقال - شعره - وقد - وهو عوفي. كما يستحضر «القارئ»/ «المسرود له»، لكن بتمثل أقل: تُعرف، وبما يخدم «سمعة» النص، وفي ذلك ما فيه من تعظيم سلطة «أنا» الشاعر على حساب المتلقي مما لمسناه بدءا، ونتوقع امتداداً له على طول القصيدة.

سردية مقطع السيرة النبوية:

وحضور السرد في قصيدة المديح النبوي ليس بالأمر الغريب، فمتن السيرة النبوية «في كثير من أجزائه صيغ صياغة قصصية[١١]، حتى إن أحد الباحثين المهتمين بالسرديات العربية، يرى في بنية السيرة النبوية «الموجه الأول، لصياغة البنى السردية للسير الشعبية فيما بعد»[١٢]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فبعد أن انتقلت فحولة الشعراء «من قصائد الدنيا إلى قصائد الدين»[١٣]، كان لابد من خلق نموذج للممدوح الديني بعيد كل البعد عن الممدوح الدنيوي، لخلق شعرية تمتح من المقدس.

مقتضيات السرد الأدبي في همزية البوصيري:

لقد كانت قصص الرسول ﷺ وما رافق حياته من معجزات محور مقطع السيرة في قصيدة المديح النبوي، ولا يكاد الشاعر يحس بأي نقص في شاعريته وهو يعيد على أسماع المتلقي القصة تلو القصة والحدث تلو الحدث. وتعتبر «همزية» البوصيري مجالاً خصباً لأحداث وقصص يطول بنا الوقوف عليها. والشاعر في هذه القصيدة حاضر بقوة كـ «أنا ثانية» أو «تشخيص فني» يقدم صورة «في منتهى الصفاء والجودة والدقة»[١٤] فهو المؤمن العامل الذي رأى الآيات فاهتدى واتبع الطريق:

ورأينا آياته فاهتدينا
وإذا الحق جاء زال المراء
ربّ إن الهدى هُداك وآيا
تك نور تهدي به من تشاء
كما رأينا ما ليس يَعْقل قد ألهم
ما ليس يُلهم العقلاء[١٥]

وهو أيضاً «الشاعر المفلق»، الذي برع في مدح الرسول ﷺ:

ضمنتها مدائح مستطاب
فيك منها المديح والإصغاء
قلما حاولت مديحك إلا
ساعدتها ميم ودال وحاء

البوصيري

حق لي فيك أن أساجل قوماً
سلمت منهم لدلوي الدلاء
إن لي غيرة وقد زاحمتني
في معاني مديحك الشعراء
ولقلبي فيك الغلوّ وأني
للساني في مدحك الغلواء
فأثب خاطراً يلذ له مد
حك علماً بأنه اللألاء[١٦]

فحضور الشاعر في النص قوي، سواء كتشخيص فني مجرد، أو كسارد ينهض بالفعل السردي، و«يمهد لخطاب الشخصيات»، ويغلب على هذا الحضور ضمائر المتكلم وأحياناً المخاطب، وهو تبادل للمواقع يضفي حركية وتنويعاً على الأفعال الحكائية.

أما «القارئ المجرد» أو «المسرود له» فيظهر في الهمزية في تمثلات متعددة، فهو أحياناً الشاعر نفسه:

فصف الليلة التي كان للمختار
فيها على البراق استواء[١٧]
فتنزه في ذاته ومعانيه
استماعاً إن عز منها اجتلاء

وهو أحياناً في مكانة الرسول ومعجزاته:

لا تخَلْ جانب النبي مضاماً
حين مسته منهم الأسواء
لا تقس بالنبي في الفضل خلقاً
فهو البحر والأنام إضاء[١٨]
فإذا شمت بشره ونداه
أذهلتك الأنوار والأنواء[١٩]

وهو أحياناً القارئ السامع الذي يحاول الشاعر/ السارد أن يشركه في عملية الحكي:

فدعا فانجلى الغمام فقل في
وصف غيث إقلاعه استسقاء[٢٠]
لا تسل سيل جودها إنما يكفيك
من وكف سحبها الأنداء
أفلا تعذرون سلمان لما
أن عرته من ذكره العرواء...[٢١]

وبعد وقوفنا على بنية «الشاعر المجرد» أو «السارد» و«القارئ/ المسرود له»، سنقف على بنية المحكي، ونختار قصة «المولد والرضاعة» مجالاً للتحليل.

يوقف المتتبع لبنية «المحكي» في هذه القصة خطابان: الأول يرتبط بالسارد/ الشاعر، في تعليقاته على القصة:

يا لها منة لقد ضوعف الأجر
عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناساً
لسعيد فإنهم سعداء[٢٢]

وفي ربطه بين الأفعال السردية:

كما رأينا ما ليس يَعْقل قد ألُهم
ما ليس يُلهم العقلاء
إذ أبى الفيل ما أتى صاحب الفيل
ولم ينفع الحجا والذكاء(٢٣)

أما الخطاب الثاني فيتمثل فيما يسمى في العملية السردية «بخطاب الممثلين»:

- وتوالت بشرى الهواتف أن قد
ولد المصطفى وحق الهناء[٢٤]
- إذ أبته ليتمه مرضعات
قلن: ما في اليتيم عنا غناء[٢٥]

أما «الشخصيات» فالحضور الأغلب في القصة للرسول ﷺ في تمثلات متعددة، منها الضمائر بأنواعها: المتصلة والمنفصلة والمستترة، ثم الأسماء: المصطفى، أحمد...

بعد ذلك تحضر شخصيات أخرى بدرجات أقل: مرضعته ﷺ، أمه، وكذلك في تمثلات متعددة (انظر الترسيمة)، بالإضافة إلى وجوه تظهر ثم تختفي: حواء، مريم العذراء، المرضعات، الرضعاء، قابلة الرسول ﷺ، جده، الجن، الملائكة...

ولما كان «ظهور أي مشروع حكائي، يؤدي إلى ظهور عائق، والخطر يؤدي إلى مقاومة وهروب»[٢٦]، فقد كان الشاعر حريصاً على تحريك الفعل القصصي، بخلق تشابك بين الأحداث وصراع في المواقف، لتقوية البطل

«بما هو مقدس»، وتحصين موقعه في نفس المتلقي على حساب: المنكر، الجاحد، العدو. ويتمثل ذلك في ذكر: الفرس، الروم، كسرى، قيصر..

وأخيراً يؤثث الشاعر فضاءه التصويري بذكر: النجوم، السماء، القصور...، مما يضفي على النص جمالية خاصة، ويحيطه بمغريات القراءة وموانع التأويل.

الشخصيات وتمثلاتها في قصة «المولد والرضاعة»

❖ خلاصة تركيبية:

- إن ترصيص الأفعال الحكائية في نفس شعري يعتمد أساساً على التخييل، يضفي على النص المدحي النبوي جمالية خاصة، إذ يمارس الشاعر على المتلقي فعل التخييل الذي هو سلطة الشعر، إلى جانب فعل الحكي الذي هو سلطة السرد.
- إن العملية الإبداعية في قصيدة المديح النبوي هي انتقال من الواقع لارتياد آفاق المثال، إنها تنضيد واع من الشاعر بين الكائن والممكن للانفتاح على المستحيل، مما يتجلى أساساً في اختيار الوقائع المُعبر عنها شعراً بعناية فائقة، وأيضاً في تضخيم «أنا» الشاعر، والتي لا يوازيها في الحضور إلا الرسول ﷺ بما هو مقدس ديني، إنه تعلق بالمطلق لما فقد المقيد/ الإنسان قيمته و«أناه» في واقع النكوص والهزيمة.
- إن تعظيم شخص الرسول ﷺ في قصيدة المديح النبوي هو واقع أريد به التحدي والانتقام على مستويين متكاملين:
- **المستوى الأول:** واقعي: في تغييب ذكر «الخليفة» أو «السلطان» لأنه لم يعد يستحق صفات الشجاعة والكرم التي كان يسبغها عليه الشعراء بسخاء فيما قبل.
- المستوى الثاني: فني: في اختراق الشاعر إلى جانب الرسول ﷺ فضاء القصيدة بعد إخلائها من «الممدوح الدنيوي»، فلما فقد قيمته الواقعية تعطلت من جرائها وظيفته الفنية داخل القصيدة.

تبقى تقنيات السرد التي كشفنا عن بعض معالمها وما يتصل بها من ملاحظات، جانباً واحداً فقط من جوانب أخرى كثيرة نرى أنها تشكل بؤرة شعرية قصيدة المديح النبوي، مما نرجو أن نكشف عنه. ■

الهوامش:

❖ أصل هذا المقال مداخلة شاركت بها في ندوة «شعرية القصيدة العربية القديمة» المنعقدة بكلية اللغة العربية بمراكش يومي ٢٢ -٢٣ يناير ٢٠٠٣.

١ - أستاذ باحث - كلية الآداب، ظهر المهراز، فاس.

٢ - قصيدة المديح النبوي الجديدة - د. محمد الدناي - مجلة «جامعة القرويين»، ع ٥- ١٩٩٣، ص ٢٤٣ - ٢٥٦.

٣ - أستاذ باحث - كلية الآداب ظهر المهراز، فاس.

٤ - القصيدة المولدية بالمغرب - د.عبدالله بنصر العلوي - مجلة دعوة الحق «العدد ٢٦١ - دجنبر ١٩٨٦ - ص ٤٤.

٥ - نفسه، ص ٤٨.

٦ - Croup U.A Ceneral Retorie. p187 - عن: السردية العربية - د. عبدالله إبراهيم - الطبعة الأولى - ١٩٩٢

- منشورات المركز الثقافي العربي - ٩.

٧ - Racit Tadie(J.Y)La poetique.pv.

٨ - ينظر: الواقعي والخيالي في الشعر العربي القديم - د.حميد لحمداني - مطبعة النجاح الجديدة - البيضاء ١٩٩٧، ص ٥٠

٩ - ديوان البوصيري - شرف الدين بن سعيد، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار الرشاد الحديثة، البيضاء، ص ٢٣١.

١٠ - قراءة في هيمنة الخطاب السردي، حسن النعمي - مجلة علامات شتنبر ٢٠٠٢ - ع ١٢، ص ١٣٥.

١١ - السردية العربية - عبدالله إبراهيم، ص ١٢٩.

١٢ - نفسه، ص ١٣٠.

١٣ - القصيدة المادحة - د.عبدالله الطيب- ص ١٣.

١٤ - Booth، voir note 15 ، p515، عن «مقتضيات النص السردي» جاب لينتفليت، ضمن: طرائف تحليل السرد الأدبي، مجموعة من الباحثين، منشورات اتحاد المغرب، ص ٩٨.

١٥ - ديوان البوصيري، ص ١٥.

١٦ - نفسه، ص ٧٢.

١٧ - نفسه، ص ٥٢.

١٨ - نفسه، ص ٥٥.

١٩ - نفسه، ص٥٧.

٢٠ - نفسه، ص ٥٦.

٢١ - نفسه، ص٥٧.

٢٢ - نفسه ، ص ٤٩.

٢٣ - نفسه ، ص ٥١.

٢٤ - نفسه، ص ٤٨.

٢٥ - نفسه ، ص٤٩

٢٦ - مقتضيات النص السردي، جاب لينتفليت، ص ٤٧.